المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES

دراسة

التّمظهر السياسيّ للموت في السّودان:

قراءة في الأقدار والمصائر

حسام الدّين صالح | سبتمبر ٢٠١٢

التّمظهر السياسيّ للموت في السّودان

قراءة في الأقدار والمصائر

سلسلة: دراسات

حسام الدّين صالح | سبتمبر ٢٠١٢

جميع الحقوق محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات © ٢٠١٢

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات مؤسّسة بحثيّة عربيّة للعلوم الاجتماعيّة والعلوم الاجتماعيّة التطبيقيّة والتّاريخ الإقليميّ والقضايا الجيوستراتيجية. وإضافة إلى كونه مركز أبحاثٍ فهو يولي اهتمامًا لدراسة السّياسات ونقدها وتقديم البدائل، سواء كانت سياسات عربيّة أو سياسات دوليّة تجاه المنطقة العربيّة، وسواء كانت سياسات حكوميّة، أو سياسات مؤسّسات وأحزاب وهيئات.

يعالج المركز قضايا المجتمعات والدول العربيّة بأدوات العلوم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والتاريخيّة، وبمقاربات ومنهجيّات تكامليّة عابرة للتّخصصات. وينطلق من افتراض وجود أمن قوميّ وإنسانيّ عربيّ، ومن وجود سماتٍ ومصالح مشتركة، وإمكانيّة تطوير اقتصاد عربيّ، ويعمل على صوغ هذه الخطط وتحقيقها، كما يطرحها كبرامجَ وخططٍ من خلال عمله البحثيّ ومجمل إنتاجه.

المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات
شارع رقم: ٨٢٦ – منطقة ٦٦
الدفنة
ص. ب: ١٠٢٧٧
الدّوحة، قطر
هاتف: ٤٤١٩٩٧٧٧٩٧٤+| فاكس: ٤٤٨٣١٦٥١ ٩٧٤+
www.dohainstitute.org

ملخّص

أبعد من العرض السرديّ لأدبيّات فلسفة "الموت"، وهو الموضوع الذي شغل الفلاسفة ولا يزال، تقدّم هذه الدراسة سبرًا لأغوار "الموت" في السّياق السودانيّ المعاصر في رمزيّته وخاصّةً في ارتباطه بالسّياسة والتاريخ السياسيّ لهذا البلد الذي يتمظهر فيه الموت بصوره المتعدّدة الحسيّة والرمزيّة وبأسبابه المختلفة.

تطرح هذه الورقة سؤالها الجوهريّ على النّحو التالي: على الرّغم من أنّ الموت بلا شكّ ظاهرة اجتماعيّة، لكن بماذا سنخرج إن تناولنا مظهره السياسيّ؟ وتقدّم إجابات عن هذا السّؤال بالعودة إلى تأثير الموت السياسيّ (بموت الزعيم السياسيّ ذاته أو نهايته السياسيّة من دون موته البيولوجيّ) في مسارات الأحداث التي عاشها السّودان وأبرزها "الحرب" التي ما إن تضع أوزارها حتّى تعود لتندلع من جديد ولا يخمد جمرها حتّى تستعر مرّةً أخرى في دورة يحتلّ الموت فيها مواضع التّمفصل، وفي موت جون قرنق أو خليل إبراهيم نماذج عن ذلك. ويبلغ الموت حدّ التحكّم في صناعة السّلام، إذ من غريب الوقائع أنّ العديد من المفاوضين الحكوميّين يختطفهم الموت وهم في المرحلة الأخيرة من المفاوضات مع الحركات التي حملت السّلاح ضدّ حكم السودان المركزيّ، وقبل التوصّل إلى توقيع اتفاقيّات السّلام.

المحتويات

مقدمة: دراسات الموت والمهمّة الصّعبة ١

أولًا: ظواهر سياسيّة مميتة ٥

ثانيًا: حضور الموت في الملعب السّياسي السّوداني ٨

١. السّودان في قلب الظّاهرة ٨

٢. حرب الموت ٩

٣. الاغتيالات السياسيّة في السّودان ١١

ثالثًا: موت السّياسي ومصير الدّول ١٤

١. توظيف الموت في السّياسة ١٤

٢. سياسيّون: أموات في طريق السّلام ١٥

رابعًا: مشكلة الوقت والتّراب في السّودان ١٧

١. جغرافيا الموت ١٧

٢. تأريخ الموت ١٨

خامسًا: متى يفكّر السّياسي في الموت؟ ١٩

١. ميلاد الأنظمة السياسيّة وموتها ١٩

٢. أسئلة عسيرة عربيًّا ٢٠

٣. مؤشّرات الموت أو الاحتضار ٢٤

٤. تحييد الموت عن المناصب الحزبيّة ٢٥

الخاتمة: موت مقابل حياة سياسيّة ٢٦

المراجع ٢٧

مقدمة: دراسات الموت والمهمّة الصّعبة

حظي الموت، باعتباره موضوعًا مُشْكلًا ولصيقًا بالإنسان والوجود، باهتمام العديد من العلوم، فقد توزّعت دراسة الموت على الكثير من التخصّصات العلميّة منها: "الطبّ والتّمريض والصحّة العامّة والعلوم الاجتماعيّة والسلوكيّة وعلى الأخصّ علم النفس وعلم الاجتماع والقانون فضلا عن الدّين والفلسفة. ولقد نشأ في العقود الأخيرة علم دراسة الموت والاحتضار Thanatology وتطوّر هذا العلم حتّى أصبح مقرّرًا دراسيًّا في الجامعات، كما نشرت فيه مراجع كثيرة، وأصبح الموت مجالا جيّدًا للدّراسة والبحث"[١].

وعلى الرّغم من الاهتمام العلمي الذي وجده الموت إلا أنّ "الإنسان بطبيعته يخشى الموت وينفر من دراسته لأنّه موضوعٌ مزعج.

> **وكما قال أحد المفكّرين المعاصرين: إنّ ثمة شيئين لا يمكن أن يحدّق فيهما المرء: الشّمس والموت! ولا يصدق ذلك على الإنسان العادي فحسب بل إنّه يصدق أيضًا على المفكّرين والفلاسفة، ومن هنا يقول روبرت أولسن Robert Olson (إنّه) على الرّغم من أنّ معظم الفلاسفة الكبار درسوا مشكلة الموت بطريقة أو بأخرى فإنّ قلّةً منهم هم الذين درسوه دراسةً نسقيّة مستفيضة، فكثيرًا ما يرد إلينا رأي المفكّر كما هي الحال عند اسبنوزا في عبارة واحدة، ومن ثمّ فإنّنا نجد الموت من الموضوعات المتكرّرة عند الشّعراء والأدباء والفنّانين بصفةٍ عامّة أكثر ممّا نجده عند الفلاسفة المحترفين الذين يسعدهم –كما فعل الفلاسفة التجريبيّون المعاصرون– استبعاده من حظيرة الفلسفة بحجّة أنّه يمكن أن يدرس بكفاية أكثر على يد علماء النفس أو علماء الاجتماع في الوقت الذي لم يظهر هؤلاء العلماء أنفسهم ميلًا لدراسة هذا الموضوع إلا حديثا جدّا"[٢].**

---

[١] أحمد محمد عبد الخالق، **قلق الموت**، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١١١، آذار / مارس ١٩٨٧ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٧)، ص٧.

[٢] جاك شورون، **الموت في الفكر الغربي**، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٧٦، نيسان / أبريل ١٩٨٤ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٤)، ص١١.

وهذا ما يقودنا إلى التّساؤل: هل استطاع الموت أن يتوغّل عميقًا داخل حدود العلوم السياسيّة على وجه التّحديد؟

الإجابة الابتدائيّة والمستعجلة لا ترى أنّ الموت قد حظي باهتمامٍ خاصّ ومكثّف في العلوم السياسيّة الحديثة؛ لقد تناولته –بشكلٍ غير مباشر– البحوث الدستوريّة في نقاشاتها الاستثنائيّة بشأن انتهاء فترة رؤساء الدّول، والموادّ التي تحويها الدساتير وتنصّ على انتهاء فترة حكم الرئيس بالموت. وتحدّث آخرون عن "الموت السّياسيّ" مثل الباحث السياسيّ جون كين في دراسته المعنونة (Life After Political Death: The Fate of Leaders After Leaving High Office) والتي ترجمها الباحث السوري هيثم فرحت بعنوان: "الحياة بعد الموت السياسي: مصير الزعماء بعد رحيلهم عن مناصبهم العليا". وفي هذه الدّراسة، يناقش كين موت "المنصب السياسيّ" وليس موت السّياسيّ نفسه، والمفارقة أنّ النقاش في الدول الديمقراطيّة على وجه الخصوص، عندما يكون عن الموت والسياسة، لا يكون منصبًّا على السياسيّ الذي مات أو سوف يموت، ولكنّه ينصرف– غالبًا– إلى موت السياسيّ ديمقراطيًّا وليس بيولوجيًّا مثلما هو الأمر في الدول النامية أو في دول الشرق الأوسط التي لا يغادر فيها السّياسيّ منصبه إلا بالعزل أو الموت. هناك في الدول الديمقراطية، يناقشون موت المنصب السياسيّ، وماذا يفعل السياسي بعد أن تتركه الديمقراطيّة.

إنّ الموت بلا شكّ ظاهرة اجتماعيّة، لكن بماذا سنخرج إن تناولنا مظهره السياسيّ؟ لم أجد في النّطاق العربي– بحسب اطّلاعي المحدود– دراسةً أولت هذا الجانب اهتمامها مثلما فعل المفكّر المغربي عبد الله ساعف في دراسته المنشورة في صحيفة العرب الأسبوعي في عام ٢٠٠٨، والتي ترجمها الأستاذ سعيد بوخليط بعنوان: "الموت والسّياسة: الشّهداء وما بعدهم.. ما الذي يصنع الموقف السياسي الصّلب؟". وعلى الرغم من أنّ ساعف اتّكأ إلى نموذج "الشّهداء" ليبرهن قيمة التّمظهر السياسيّ للموت في المجتمع المغربي، إلا أنّه أعلن– مثلنا– من البداية صعوبة هذا الضّرب البحثيّ المتعلّق بربط الموت بالسّياسة وغرابته.

> **ويقول عبد الله ساعف: "لماذا نتقدّم هنا بتأمّلات، تبدو للوهلة الأولى أنّها لا تنهض سواء على السّياسة والفلسفة أو الشعر؟ كيف نقنع بالتخلّي عن محاور الواقع السّاخنة، حيث النظريّة إجمالًا، تنتج حقائق ملحّة وتنفتح على ممارسات فوريّة بخصوص الديموقراطية ثمّ التخلّف، وكذا التشكّل المغربيّ**

اقتصاديًّا واجتماعيًّا؟ كيف نقدّم الدليل، بمشروعيّة التفكير لحظةً في تيمات غير راهنة، تفتقد لفعاليّة ظاهريًّا، ثمّ بالتأكيد ميتافيزيقية، بقدر ما يصعب ضبطها، مثل الموت؟ في الوقت الذي يتحتّم فيه صراع بلا هوادة ضدّ الاتّجاهات التي تروم نحو التصوّف واللاعقلانيّة، وقد هيمنت في الأيّام الأخيرة على مجموع سجالاتنا الأيديولوجيّة عبر (كثرة الخطابات الجديدة بشأن الثقافة الشعبيّة، وإعادة تكييف هذيان الوجوديّين)، الدفاع عن هذا الحقّ المثير في الإطناب بخصوص الموت، يبدو بالفعل مفارقًا. لا يتعلّق الأمر بإطالة الكلام ميتافيزيقيًّا لكن حول الموت، على طريقة هيدغر تأمّلها باعتبارها قضيّة محض سياسيّة، أو بالانقياد أيضًا وراء تأمّلات فلسفيّة أدبيّة من نوع تلك التي جاء بها (René de la Charrière) في عمله المعنون بـ(La divagation de la pensée politique)، وهو يبحث لكي يستخلص بعض المواقف والسلوكات السياسيّة، ثمّ إظهارها باعتبارها جوابًا متنوّعا عن قضيّة الموت الميتافيزيقيّة"[٣].

يتحدّث ساعف في دراسته عن "الخاصيّة الهاجسيّة لتيمة الموت" عند تشي غيفارا، ثمّ يطرح عددًا من الأسئلة تحوم حول الموت والسّياسة، مثل: كيف فكّر المغاربة أو عاشوا موتهم؟ ما هي طبيعة الصّراعات التي تتمحور حول بعض الميتات الرمزيّة وقواعدها؟

تسعى قراءتنا إلى النّظر للموضوع من جانبٍ فلسفي تأمّليّ واجتماعيّ سياسيّ، من دون أن تغفل الوقائع التاريخيّة، كإطار علميّ يستعين بالمنهج المقارن للمساعدة في التوصّل إلى إجابة بشأن صحّة التّمظهر السياسيّ للموت في السودان وإمكانيّته ووضوحه. وهي لا تستصحب مقولات لسياسيّين ومفكّرين سودانيّين يتحدّثون عن تعرّض "السّياسة الوطنيّة" للموت فحسب، بل تحاول أن تقتفي أثر الموت السياسيّ على أفراد كانوا قبل موتهم –وما زالوا بعد ذلك– مؤثّرين في عالم السّياسة. وتهتم أيضًا بأثر الموت الجماعيّ –المتمثّل في "الحرب"– في تشكيل واقع السودان السياسيّ ومستقبله على السّواء.

ستحاول هذه القراءة تفحّص الأقدار والمصائر التي آلت إليها الدولة السودانيّة المعاصرة، وآل إليها أيضًا سياسيّون وزعماء، لم يكن موتهم يعني هزيمتهم في الحياة، بقدر ما

---

[٣] عبد الله ساعف، "الموت والسياسة"، صحيفة **العرب الأسبوعي**، ٢٠٠٨/٦/١٤:

http://www.alarab.co.uk/previouspages/Alarab%20Weekly/2008/06/14-06/w10.pdf

كان يعني انتصارًا لوجهة النّظر الأخرى. إنّ النّظرة الانهزاميّة الأوّلية التي نرى بها علاقتنا مع الموت حينما نقف أمامه وجهًا لوجه، يراها بعض الفلاسفة– مثل الوجوديّ الفرنسي جون بول سارتر– انتصارًا لوجهة نظر "الآخر".

> **ويقول سارتر: "مشروعي نحو موتٍ ما هو أمرٌ يمكن فهمه 'الانتحار، الاستشهاد، النزعة البطوليّة'؛ لكن مشروعي نحو موتي باعتباره إمكانيّة غير محدّدة لعدم تحقيقي المزيد من الحضور في العالم ليس قابلا للفهم إذ إنّ هذا المشروع سيكون تدميرًا لكلّ المشروعات، وهكذا فإنّ الموت لا يمكن أن يكون إمكانيتي الصّحيحة بل إنّه لن يكون حتّى واحدة من إمكانيّاتي، غير أنّ الموت ليس فحسب إبطالًا لمشروعاتي أو مشروعًا يدمّر المشروعات كافّةً، وإنّما هو كذلك انتصار لوجهة 'نظر الآخر' وهذا هو ما يُعتقد أنّ مالرو Malraux كان يعنيه حينما قال إنّ الموت يحوّل الحياة إلى مصير"[٤].**

تأكيدًا لما سبق، يبدو أنّ الصّعوبات لا تواجه بحوث قلق الموت فحسب بل إنّها تقابل أيّ بحوثٍ نفسيّة أو اجتماعيّة متعلّقة بالموت بوجهٍ عامّ. ففي الدّراسة الاجتماعيّة القيّمة التي أجراها الدكتور سيد عويس على نظرة القادة الثقافيّين المصريّين لظاهرة الموت والموتى، واجه هذا المؤلّف الصّعوبات ذاتها وقد قسّمها إلى صعوبات تتّصل بجانبين، هما:

١– النّظرة إلى البحث الاجتماعيّ.

٢– النّظرة إلى موضوع الدّراسة.

وفيما يختصّ بالجانب الأوّل، ظهر اختلالٌ كبير في نظرة بعض المستجوبين إلى طبيعة البحث الاجتماعي، ولا أدلّ على ذلك من عدم ردّ بعضهم الاستمارات المتعلّقة بالبحث ورفض آخرين التّعاون فيه. وفيما يختصّ بالجانب الثاني، فقد صنّف هذا المؤلّف نظرة المستجوبين إلى

---

[٤] جاك شورون، **الموت في الفكر الغربي**، مرجع سبق ذكره، ص٢٧٩.

موضوع الدراسة كما يلي: نظرة صدٍّ واعتراض، نظرة تشاؤم، نظرة استهتار، نظرة اتّهام، نظرة مدح، نظرة تعاون[٥].

إنّ القراءة التي نقدمها، ليست بحثًا اجتماعيًّا ولا سياسيًّا عن الموت، هي فقط تأمّل قد يخلط الفلسفة بالواقع، نخشى–مثل سيد عويس– أن يقابل بالتّشاؤم أو الاستهتار، أو الاتّهام، ونتمنّى فقط أن يحظى بنظرة مدحٍ أو تعاون، أو ما نحتاج إليه جميعنا: نظرة نقد.

أولًا: ظواهر سياسيّة مميتة

لم تستطع ثورات الربيع العربيّ– التي ميّزت العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين– الوصول إلى تخوم السّودان، على الرّغم من ملاصقته لمصر وليبيا، وقربه من تونس واليمن. وأشار كثيرون إلى أنّ الشّعب السوداني أخذ نصيبه من الربيع العربيّ باكرًا واستبق شعوب المنطقة في الثورة على حكّامه منذ ستينيّات القرن الماضي عبر ثورة أكتوبر ١٩٦٤، وانتفاضة أبريل ١٩٨٥، بينما يؤكّد آخرون أنّ وجود الإسلاميّين على سدّة الحكم في السودان، هو الذي عطّل الثورة فيه، أو هو على الأقلّ السّبب الذي يعمل على تأخيرها باعتبار وجود الإسلاميّين الفاعل في الدّفع بثورات الربيع العربيّ إلى نهاياتها. إلا أنّ المؤكّد أنّ السودان لم يكن بعيدًا عن أيادي التّغيير التي ظلّت تعمل ولم تتوقّف حتّى الآن عن إعادة تشكيل لوحته الجيوسياسيّة، فقد بدأ السودان يتغيّر جغرافيًّا منذ انفصال جنوبه عن شماله، وما زالت الماكينة السياسيّة في الداخل تدور، والبطن حبلى بمتغيّرات كثيرة، والأطراف الجنوبيّة والغربيّة ما زالت تشغل البال الوطنيّ، بل والدوليّ أيضًا.

---

٥ أحمد محمد عبد الخالق، **قلق الموت**، مرجع سبق ذكره، ص٢٢.

الأمر الذي يبدو غريبًا أنّ قوّةً مثل الموت تفوق مقدرات البشر، باتت تبدو لاعبًا سياسيًّا في السودان ذا تأثير كبير في تفاصيل اللّعبة السياسيّة ونتائجها المستقبليّة. نقول هذا الكلام، نظرًا لـ"ميتات سياسيّة" كبيرة هزّت الدولة السودانيّة الحديثة، إضافةً إلى ظواهرَ سياسيّة خطيرة مثل غياب الديمقراطيّة في الدولة والأحزاب السياسيّة، والشّيخوخة التي تضرب كلّ رؤساء الأحزاب السودانيّة أو أغلبهم. وهي ظواهر تؤثّر في المشهد السياسيّ السودانيّ وتُدني فاعليه الكبار– وربّما تُدني المشهد بأكمله– من الموت المحقّق.

وعلى الرّغم من بطشه ودلالته الأكيدة على الضّعف البشريّ وأثره السيّء في الإنسان خوفًا وحزنًا ونقصًا، يبدو الموت في أحايينَ كثيرة –وعند كثيرٍ من النّاس– حلًّا مفضّلًا للعديد من المشكلات الشخصيّة والعامّة. حينما يلجأ كاتب الرّواية أو القصّة إلى "تمويت" إحدى شخصيّاته على الورق، يرتاح من صداع "الحبكة" ولا يستطيع أحدٌ أن يحاكمه قضائيًّا لأنّ المسألة برمّتها تنتمي لعالم الخيال، وكثيرون في هذا العالم يودُّون لو أُتيحت لهم فرصة اللّعب بالموت للقضاء على الآخرين والهروب من المسؤوليّة.

ليس في العالم من يقف أمام الموت، الكلّ عنده سواء، تموت حضارات ودول، وتموت أحزاب، فما بالنا بالأفراد! لكن، هل نظرنا إلى الموت بوصفه لاعبًا سياسيًّا يستخدم قوّته في تحريك الملعب السّياسي لبلدٍ أو لمنظومةٍ ما.. هل يبلغ الضّعف والعجز بالإنسان أن يترك الموت ليساهم في حلّ مشكلاته التي لم يستطع مواجهتها؟

يتّضح أثر "الموت المُسيَّس" جليًّا في أنظمة الحكم الملكيّة، حينما يُغيّب الموت ملكًا تنتهي حياته كشخص، وتحل نهاية أسرته الحاكمة والموالين له والمستفيدين من حكمه، وتبدأ مرحلة سياسيّة جديدة، خاصّةً إذا كان السّياسي الذي اختاره الموت قابضًا على الحكم بديكتاتوريّة لا مُتنفَّس معها، أو متكلِّسًا على علاقات ورؤى قديمة بسنوات متقدّمة في العمر تؤهّله للتّقاعد لا لإدارة دفّة حكم.

حتّى الأنظمة الجمهوريّة، حين يستبدّ فيها بالرّأي والسّلطة حزب أو رئيس، يصبح الموت– عند المعارضين والنّاقمين والمظلومين– أمنية الأماني، حتّى إذا وقع، أصبح المشهد السياسيّ قاب قوسين أو أدنى من قيادةٍ جديدة تتوخّى حذر الموت بالعدل والديمقراطية والتّجديد.

بإمكاننا أن نلاحظ مع عبد الله ساعف ما يلي:

> **"الصّلة القائمة مبكرا جدًّا، من خلال النظريّة السياسيّة، بين مستوى تطوّر المجتمع والموت يمكن أن تساعد بشكلٍ أفضلَ في تطويق طبيعة الحدّ الذي ستشكّله داخل مجتمعٍ متحرّر. سيصف ابن خلدون –على سبيل المثال– مطوّلًا ملامح المجتمع العادل والمتسامح، بمثل هذه المفاهيم: "تشجّع السّلطة المتسامحة مواطنيها، وتثير فيهم رغبة كبيرة للاشتغال. يزداد عدد السكّان والديموغرافية في أقصى توسّعها. مقاطع المقدّمة التي تصف مجتمعًا آخذًا في التفكّك قياسًا لسلطة تنتشر وفق روح التّخريب وبخاصيّات قمعيّة، هي معروفة جدًّا. نصّ ابن خلدون متميّز كثيرًا، ممّا يحتّم إعادة استنساخه ثانيةً بالكامل: "...كلّ هذا متعلّق بإفلاس الدولة. تقوم اضطرابات، ينساب الدّم، تندلع الأوبئة، السّبب الرئيس هو فساد المحيط نتيجة فائض في عدد السكّان: يتفشّى الفساد والرّوائح الخبيثة. في حين، يغذّي الهواء الفكر الحيواني 'الروح الحيوانيّة' ويبقى في تماس معه. إذا فسد، ينفذ الشرّ إلى المزاج. في الحالات الجسيمة، تصاب الرّئتان. توجد لدينا عندئذٍ أوبئة رئويّة. حتّى، ولو كان تغيّر الهواء ضعيفًا، ينمو التعفّن ويزداد: تهاجم الحمّى التّركيب الإنساني، ثمّ يسقط "النّاس مرضى ويموتون..." شيء دالّ، أنّ ابن خلدون يدرك المجتمع العادل والذي يتمّ تسييره بشكلٍ جيّد، مثل فضاءٍ مناسب لنموّ الحياة، ثمّ المجتمعات القمعيّة كمجالٍ رحب للموت. بإمكاننا، الانتباه للمقاييس التي أوردها ابن خلدون، لكي يموّه على تفشّي الموت في المجتمع القمعي: "من الضّروري قطعًا توفير فضاءات حرّة واسعة بين المناطق الآهلة، لكي تتيح للهواء الانتشار"[٦].**

لن تدّعي هذه القراءة إحاطتها بالمنهج العلميّ للوقوف على الظّاهرة السياسيّة للموت في السّودان، هي تلفت الانتباه لزاوية غير مرئيّة في المشهد السياسي في السّودان فحسب، ربّما يأتي لاحقًا من يتعمّق في هذا الاتّجاه ويعطيه حقّه ومستحقّه من التّمحيص والدّراسة والنّظر. ولا تخفي هذه القراءة اعتمادها على الخيال بوصفه رافدًا للمعرفة ومحفّزًا لها مثلما نقل عن أينشتاين قوله: "الخيال أهمّ من المعرفة". وقد استعانت هذه القراءة في جزءٍ كبير منها بالمنهج التاريخيّ لاستقراء الظّاهرة الاجتماعيّة للموت في تمظهرها السّياسيّ.

---

[٦] عبد الله ساعف، مرجع سبق ذكره.

ثانيًا: حضور الموت في الملعب السّياسي السّوداني

١. السّودان في قلب الظّاهرة

في حالة السّودان، لا يقف الموت بعيدًا كلاعب سياسيّ، هذا ما يبدو جليًّا في المشهد السّودانيّ الذي يقول أبناؤه قبل الغرباء عنه، إنّه ظلّ يدور في حلقة مفرغة أو نفقٍ طويل مظلم دخله البلد منذ أن نال استقلاله من الاحتلال الإنكليزي في عام ١٩٥٦ من دون أن يلمس الشّعب استقرارًا سياسيًّا ونهضة حضاريّة واضحة، ومن دون أن يرى– مثل نظرائه في المنطقة– بنيات تحتيّة أساسيّة تمكّن الدولة من تلبية أشواق مواطنيها.

عندما يقول خبيرٌ إستراتيجي مثل البروفيسور حسن مكي إنّ السودان يتغيّر، فإنّه يعني ذلك حقًّا. وحين يُسأل عن خليفة الرّئيس البشير، يزيد مكي القول إيضاحًا: "الحياة والموت بيد الله ليس فقط موت الأشخاص ولكن لكلّ أجلٍ كتاب سواء حقبة سياسيّة أو اجتماعيّة أو اقتصاديّة والمتغيّرات كبيرة والمطلوبات أيضًا كبيرة وتجديد القيادات هو الذي يكشف عن حيويّة الأمم"[٧]. ويؤكّد أيضًا:" السّودان كلّه سيتغيّر ولكلّ أجلٍ كتاب، ولو كان تاريخ السودان السياسيّ محطّة نهايته الأزهري ما كان وصل الأزهري، ولو كان محطّة نهايته نميري ما كان وصل النميري نفسه، والتاريخ في حالة صيرورة وفي حالة تغيُّر واللّطف الإلهي يعبِّر عن نفسه في أشكالٍ مختلفة، الحكيم هو من استطاع أن يقرأ اللّطف الإلهي في لحظات تجلّياته"[٨].

أمّا زعيم حزب الأمّة الإمام الصّادق المهدي، فيبدو أكثر صراحةً وتعبيرًا عن قوّة الموت الباطشة وتأثيراتها في السّاحة السودانيّة. قبل عام من الآن، وفي ١٥ كانون الثاني / يناير عام

---

[٧] حسن مكي، صحيفة **الانتباهة**، حوار نشر في عدد ٢٠١٢/٤/١.

[٨] المرجع نفسه.

٢٠١١ في صحيفة الرأي العام السودانيّة، صرّح الصّادق المهدي قائلًا: "السّودان الآن على فراش الموت"[٩]. مرّت سنة كاملة وما زال المهدي يؤمن بذات القضيّة والتّوصيف والكلمات، إذ تنقل عنه صحيفة الرأي العام في عدد يوم ١٩ آذار / مارس عام ٢٠١٢ قوله: "السّودان يحتضر ولا مجال لانتظار الانتخابات"[١٠].

بحسب فلسفة الموت عند وليد علي عبد المجيد فإنّ "علم الاجتماع غالبًا ما ينظر إلى الموت على أنّه انتقال أو تحوّل من حالةٍ إلى أخرى، أمّا علم الموت (ثاناتولوجي Thanatology) فإنّه يدرس ما يتّصل بالموت والاحتضار مرتبطًا بالمجال النّفسيّ والاجتماعيّ"[١١]، فهل يتحوّل الموت– في الحالة السودانيّة– من ظاهرة اجتماعيّة معهودة التّشخيص والتّوصيف عالميًّا وعلميًّا، إلى ظاهرة سياسيّة بدأت تطلّ بعنقها في البلدان النّامية المفتقرة للديمقراطيّة؟

٢. حرب الموت

ليس أدلّ على الموت من الحرب؛ ويقول سيغموند فرويد في هذا الشأن:

> **"ومن الواضح أنّ من شأن الحرب أن تجتاح هذه المعالجة التقليديّة للموت. فلا حاجة لتكرار الحديث عن الموت فنحن مضطرّون لأن نؤمن به لأنّ الناس يموتون حقًّا. ولم يعودوا يموتون الواحد بعد الآخر، وإنّما يموت الكثير منهم في وقتٍ واحد وغالبًا ما يموت عشرات آلاف في يومٍ واحد، كذلك لم يعد الموت موتًا عرضيًّا. ومن المؤكّد أنّه لا يزال مسألة صدفة إذا كانت رصاصة معيّنة تصيب هذا الرّجل أو ذاك. ولكن الذي يبقى على قيد الحياة يمكن بسهولة أن يصاب برصاصةٍ أخرى، ويضع التّراكم نهاية للانطباع بأنّ الموت عرضيّ. لقد أصبحت الحياة في الحقيقة مثيرةً للاهتمام من جديد، لقد استعادت الحياة أهمّيتها كاملة"[١٢].**

---

[٩] الصادق المهدي، صحيفة **الرأي العام**، ٢٠١١/١/١٥.

[١٠] الصادق المهدي، صحيفة **الرأي العام**، ٢٠١٢/٣/٢٠.

[١١] وليد علي عبد المجيد، مجموعة مقالات عن "فلسفة الحياة والموت" على مدوّنته الإلكترونيّة:http://phdwalid.blogspot.com

[١٢] سيغموند فرويد، **أفكار لأزمنة الحرب والموت** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨١)، ص ٢٧.

لقد ظلّ الموت يحوم حول السّياسة السودانية منذ استقلال السودان كدولة وطنيّة حديثة في عام ١٩٥٦، أو بصفةٍ أدقّ بدأ الأمر قبل الاستقلال، ربّما بأحداث تمرّد توريت في عام ١٩٥٥، الشّرارة التي لم ينسها الشماليّون والجنوبيّون على حدٍّ سواء. منذ ذلك الحين لم يتوقّف الموت المتجلّي في الحرب عن حصد الأرواح ورسم مستقبل السّياسة في السودان والمنطقة، ولم تفارق "حرب الجمهوريّة الأولى" أشواق "الجمهوريّة الثانية" حتّى الآن. تَوَاصَل الموت في حرب الجنوب. توقّف قليلًا بعد توقيع اتفاقيّة السّلام في عام ٢٠٠٥، ثمّ اندلع مجدّدًا عقب مقتل جون قرنق، وأعاد الموت ذاكرة الشماليّين إلى أحداث تمرّد توريت، فوقع ما وقع في أحداث "الاثنين الأسود"[١٣] في الخرطوم بتداعياته التي لم تستثنِ جنوبيًّا أو شماليًّا. ساد الهدوء مرّةً أخرى، إلّا أنّ الموت المتجلّي في الحرب اتّجه غربًا فكانت مشكلة دارفور، فحصد الموت أعدادًا كبيرة من الضّحايا بلغت الآلاف باعتراف المتمرّدين والحكومة السودانيّة، إلى أن بدأت أقدام الموت تبتعد قليلًا عن الإقليم المنكوب في ظلّ "الجمهوريّة الثانية" التي اخترع وصفها نائب الرّئيس السّوداني الأستاذ علي عثمان محمد طه لسودان ما بعد الانفصال.

إنّ الذي يقف أمام الموت دائمًا يبوء بالخسران، أمّا الذي يرجع من خسارة الموت المعلن بالمخفيّ من المكاسب فهو المولع باقتناص الحكمة، وهو المستفيد آخرًا من الموت على الرّغم من الأحزان، ولذلك لا يبدو غريبًا للمراقب، أن يُفسحَ المتنازعونَ الطّريقَ للموت حتّى يستخدم سياسة القوّة حين تغيب قوّة السّياسة. عندما تتوقّف الحرب اللّعينة وتتخلّى عن مصادقة الموت، يتأكّد العالمون ببواطن الأمور أنّ ثمّة سياسيّين حكماء قرّروا أن يقولوا كلمتهم.

ما زالت فكرة استخدام الموت في السّياسة مستمرّة حتّى الآن، وتتمظهر بشكلٍ واضح في المفاوضات التي كانت تتمّ بين الخرطوم وجوبا من حين إلى آخرَ لحلّ القضايا العالقة بعد

---

[١٣] تشير تسمية "الاثنين الأسود" إلى أحداث القتل والتخريب والنهب والحرق للممتلكات التي وقعت في الخرطوم يوم الاثنين ١ آب / أغسطس ٢٠٠٥ بعد الإعلان الرسمي عن مقتل جون قرنق (نائب رئيس الجمهورية ورئيس حكومة جنوب السودان وزعيم الحركة الشعبية لتحرير السودان) في حادث تحطم طائرة كان على متنها في الحدود بين السودان وأوغندا وذلك يوم السبت ٣٠ تموز / يوليو ٢٠٠٥.

انفصال جنوب السّودان عن الشّمال. فكلّما اقترب أوان المفاوضات بين الدّولة القديمة والجديدة يعلو صوت الموت قليلًا بين البلدين للفوز بأراضٍ جديدة في التّفاوض، إلا أنّ الجرّة لا تسلم في كلّ كَرَّة، إذ ربّما تؤدّي سياسة الموت هنا إلى موت السّياسة وبالتّالي التّفاوض نفسه. وهذا ما حدث فعلا لفترة من الوقت بعد احتلال قوّات جيش جنوب السّودان مدينة هجليج السودانيّة الغنيّة بالنّفط، فلم تعاود الدّولتان الجلوس إلى طاولة المفاوضات بعد أوّل حرب اشتعلت بينهما بعد الانفصال إلّا بضغطٍ من مجلس الأمن عبر قراره رقم ٢٠٤٦.

وهكذا، يعدّ علماء الاجتماع "الحرب" إحدى المشكلات الأخلاقيّة التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالموت، فيقولون: "إذا كان الموت أمرًا غير مرغوب فيه فإنّ السّؤال عن مدى أخلاقيّة الحروب هو أمر لابدّ من فحصه، لاسيّما إذا تعلّق الأمر بمدى أخلاقيّة قتل النّساء والأطفال غير المشاركين في الحرب من ناحية، ومدى أخلاقيّة استخدام أساليب التّعذيب من ناحيةٍ أخرى"[١٤].

٣. الاغتيالات السياسيّة في السّودان

حينما تتعثّر كلّ أدوات الحياة أمام بعض السياسيّين، يلجأ اليائسون منهم أو المفرطون في الطّموح إلى حلٍّ أخير لمشاكلهم مع منافسيهم، فيصبح الموت هو الأداة الأنسب لاقتلاع الجذور. عندما يلجأ السّياسي إلى الموت ينتقل إلى ما نطلق عليه تسمية "الاغتيال السّياسي" أو "القتل خارج القضاء" كما يقول الحقوقيّون. والاغتيال السّياسي كما تعرّفه الموسوعات هو "الوصف الذي يستخدم لعمليّة القتل المنظّمة والمتعمّدة التي تستهدف شخصيّة مهمّة ذات تأثير سياسي أو قيادي. ويكون مرتكز عمليّة الاغتيال عادةً أسباب عقائديّة أو سياسيّة أو انتقاميّة

---

[١٤] وليد علي عبد المجيد، "المفهوم الأخلاقي للموت"، ٢٠١٢/٣/١٨، مقالة على مدوّنته الإلكترونيّة:

http://phdwalid.blogspot.com/2012/03/blog-post_18.html.

تستهدف شخصًا معيّنًا يعدّه منظّمو عمليّة الاغتيال عائقًا في طريق انتشار أوسع لأفكارهم أو أهدافهم". وقد تمتدّ يد "التّمويت" إلى رؤساء دولٍ أملًا في تغيير النظام السّياسيّ بكامله.

الاغتيالات، لا سيّما السياسيّة منها، لا تجد في العادة تأييدًا بسبب كلفتها الجنائيّة والسياسيّة، فكثير من تجارب الاغتيال لم تفلح في تغييرٍ مأمول للواقع، إن لم تزد الحسابات السياسيّة تعقيدًا، وعلى الرّغم من كلّ ذلك فإنّها لم تتوقّف منذ فجر التاريخ وحتّى الآن.

ويعدّ موت الزّعيم الجنوبي الشّهير جون قرنق آخر اغتيال لزعيم سياسي في المنطقة[١٥]، إذ لا يقربه في المدّة إلّا رئيس الوزراء اللبنانيّ رفيق الحريري الذي اغتيل في تفجير مروّع في بيروت في شباط / فبراير من عام ٢٠٠٥، بينما كان موت جون قرنق في تحطّم طائرته المثير للرّيبة في ٣٠ تمّوز / يوليو من العام نفسه.

في سباق البقاء، وفي سياق النّفي، لا توجد دولة في العالم تنافس الآخرين في اللّجوء لحلّ "الموت" مثل إسرائيل، فهي تستخدم الاغتيال السياسيّ –كما وصف كثير من الخبراء– بـ"طريقة منهجيّة ومنظّمة". وحين يتحدّث الباحث الإسرائيلي آرييه نادلر عن ظاهرة الاغتيال يعرّفها بأنّها "نشاط إرهابيّ ينطلق من دوافعَ أيديولوجيّة". أمّا حينما يحاول باحث إسرائيليّ آخر مثل ميخال وولتسر تسويغ دوافعها، فيقول عنها في دراسته "الديمقراطيّة وسياسة الاغتيالات": "عند تفحّص هذه الأيديولوجيا المبرّرة يمكن رؤية تميّزها بوجهين أساسيّين يرتبطان مباشرةً بأمن الدّولة أوّلًا وبالقيمة الدينيّة أو القوميّة للأرض. في الحالة الأولى، يحدث الانقسام الطبيعيّ للمواقف بين اليمين واليسار، وهو يحتلّ مركزًا يتشابه مع أيّ خلاف حول أمور اجتماعيّة أو

[١٥] لم تجل الحقيقة كاملة عن حادثة تحطم طائرة الهيلكوبتر الرئاسيّة الأوغنديّة التي كانت يستقلها جون قرنق عائدًا من زيارة إلى أوغندا حيث التقى الرئيس الأوغندي يوري موسيفيني، ولا يستبعد هذا الأخير أن تكون الحادثة مدبرة، وهو ما يجعلها عملية اغتيال لا محض حادثة مأساوية.

اقتصاديّة في دولٍ لا يحتلّ الأمن مركزًا حيويًّا فيها، وفي المساهمة في أيّ خلاف داخليّ عميق"[١٦].

أمّا في السودان، فإنّ أغلب الاغتيالات السودانيّة محاولات لم يكتب لها النّجاح، مثل محاولة اغتيال وزير الشّباب والرّياضة حاج ماجد سوار في مدينة كادوغلي بولاية جنوب كردفان بعد تعرّضه لإطلاق نار من مسلّحين.

يقول الباحث السودانيّ ياسر أبو حسن في دراسته "تاريخ الاغتيالات السياسيّة في السودان":

> **"إنّ السودان يعدّ من الدول التي لم تعرف الاغتيالات السياسيّة كما أنّ الحكومات المتعاقبة على حكم السّودان اتّسمت بالتّسامح ولم يحدث أيّ نوعٍ من أنواع الاغتيالات السياسيّة، إلّا أنّ هنالك أحكامًا بالإعدام صدرت في حقّ سياسيّين عدّة مرّات خاصّةً في فترة الحكومات العسكريّة السّابقة، كان أوّل حكم بالإعدام السياسيّ نفّذه الرّئيس إبراهيم عبود إثر المحاولة الانقلابيّة التي جرت عام ١٩٥٨ كما نفّذت عدّة أحكام في الإعدام بالقضاء في فترتَي حكومة النميري والإنقاذ بسبب محاولة تغيير نظام الحكم بالقوّة" ويضيف الباحث: "لم تشهد السّاحة السودانيّة عمليّة اغتيال سياسي مدبّر وفق التعريف المعروف مثلما تحدث في كثير من بلدان العالم ولكن هنالك بعض العمليّات التي نفّذت خلال حقبة سبعينيّات وثمانينيّات القرن الماضي بواسطة أيادٍ غير سودانيّة"[١٧].**

---

[١٦] عصام البغدادي، "الاغتيالات السياسيّة في الشّرق الأوسط"، **الحوار المتمدّن**، العدد: ٧٨٣ (٢٠٠٤/٣/٢٤).

[١٧] ياسر أبو حسن، "الاغتيالات السياسيّة في السودان وأثرها على الدبلوماسيّة السودانيّة"، **مركز الراصد للبحوث والعلوم**، د.ت:

http://www.arrasid.com/index.php/main/index/33/64/contents.

ثالثًا: موت السّياسي ومصير الدّول

١. توظيف الموت في السّياسة

من الجيّد أن يلجأ نظامٌ ما إلى التّوظيف السياسيّ للموت، هذه غاية الحكمة بعد التّسليم بوقوع القدر، أمّا أن يصير الموت هو الموظِّف للسّياسة فهي قلّة الحيلة الأدهى، والعجز الأَمَرّ، والمؤشّر لحالة اليأس من أيّ حلّ في الأفق سوى الوقوف باستسلام أمام أيادي الموت الباطشة، وهو ما يدعو إلى تقليب النّظر مرارًا في أساس المشكلة السودانيّة التي ما زالت تعوق مسيرة هذا البلد العربي الأفريقي الكبير والمميّز.

إنّ الموت (الاستشهاد) في نظر المفكّر عبد الله ساعف بوصفه نقطة قطيعة لتأسيسات جديدة للحقل السياسيّ "يبعث الاتّجاهات، والتّمفصلات، ثمّ ينخر قوى سياسيّة من الداخل..."[١٨]. فهل تحقّق ذلك، أو جزء منه، في الحالة السودانيّة؟

لقد بدا واضحًا أنّ موت جون قرنق في ٣٠ تمّوز / يوليو عام ٢٠٠٥ كان لاعبًا سياسيًّا استطاع أن يؤثّر في نتائج اللّعبة السياسيّة في السّودان والمنطقة عامّةً، خاصّةً في نظر الذين كانوا يعوّلون على جون قرنق في إنجاز مشروع "السّودان الجديد" الذي كان يبشّر به منذ أن كان في أدغال الجنوب وإلى أن جلس على كرسيّ الحكم نائبًا للرّئيس السّوداني في القصر الجمهوريّ في الخرطوم. لقد كان موت قرنق مخيّبًا أيضًا للكثير من الوحدويّين السودانيّين، شماليّين وجنوبيّين؛ والأمر كما يؤكّد البعض يتعدّى خيبة الأمل إلى تأثير موته المباشر في سياسة وحدة السّودان التي كانت تفضّلها بعض القوى الدوليّة المستفيدة من السّلام في السودان، وترفضها أطرافٌ أخرى مثل إسرائيل، لا سيّما بعد أن رأى الكثيرون – وقاسوا بمؤشّرات عديدة– الحماس الوحدوي الذي كان يبدر من جون قرنق في الخرطوم وظلّ يتصاعد بعد عودته من الحرب.

---

[١٨] عبد الله ساعف، مرجع سبق ذكره.

لذلك، لا يخالج بعض المراقبين الشكّ في أنّ موت قرنق كان مدبّرًا– من قوى تريد الانفصال– لتحويل مسار السّودان من حالة الاتّحاد إلى التشظّي. وقد مات قرنق، وما زال الوضع في الشّمال والجنوب محتقنًا بالنّزاعات السياسيّة والأزمات الاقتصاديّة، ومشوبًا بالحرب مرّةً والحذر في كلّ مرّة.

يماثل موت قرنق في تأثيره السياسيّ في مسيرة الحرب والسّلام في السّودان، موت خليل إبراهيم قائد حركة العدل والمساواة المتمرّدة في دارفور الذي قُتل في ٢٥ كانون الأوّل / ديسمبر عام ٢٠١١، إذ شكّل موته صدمةً كبيرة لأعضاء الحركة، وأثّر في فاعليّتها ووجودها على الأرض، وأصبح الموت بذلك لاعبًا سياسيًّا في صالح الحكومة السودانيّة لإعادة الاستقرار في دارفور.

٢. سياسيّون: أموات في طريق السّلام

يسجّل التاريخ السياسيّ السودانيّ الحديث أكثر من حالة لسياسيّين أُسندت إليهم مسؤوليّات تفاوضيّة قضى عليهم الموت قبل أن يبلغوا تمام طريق السّلام. والغريب في الأمر أنّ أغلبهم مات في حوادث بوسائل نقل، والأغرب من ذلك رحيلهم قبل تمام عامٍ واحد من إنجاز اتّفاقات السّلام التي أبرموها مع المتمرّدين على الدولة سواء في مشكلة جنوب السّودان أو في دارفور. من هؤلاء الزّعماء المفاوضين نائب الرّئيس السوداني المشير الزبير محمد صالح ومستشار الرئيس السوداني مجذوب الخليفة، مات الأوّل في حادثة تحطّمت فيها طائرته في أحراش جنوب السودان في مدينة الناصر في شباط / فبراير من عام ١٩٩٨، ومات الأخير في حزيران / يونيو ٢٠٠٧ على متن سيارته بعد انقلابها وهي تسير في طريق الخرطوم – شندي إثر انفجار إطارين من إطاراتها (الخلفيّ والأماميّ).

لقد اشتهر الزبير ومجذوب بقيادة أدوار تفاوضيّة كبيرة انتهت بكليهما إلى إنجاز اتّفاقات سلام، فقد وقّع الزبير مع فصائلَ جنوبيّة متمرّدة اتفاقيّة سلام الخرطوم في نيسان / أبريل عام ١٩٩٧ وهو العام الذي سبق موته، أمّا مجذوب فقد وقّع مع متمرّدي دارفور اتفاقيّة أبوجا للسّلام

في أيار / مايو عام ٢٠٠٦، وهو أيضًا–للمصادفة الغريبة بين الشخصيّتين– العام الذي سبق موته في حزيران / يونيو عام ٢٠٠٧.

مثّل موت النّائب الأوّل للرّئيس السوداني المشير الزبير محمد صالح فقدًا كبيرًا للدّولة وللاتّجاه السّلمي. وما زال حادث تحطّم طائرته مثيرًا للجدل، حال كلّ حوادث الطّيران التي شهدها السّودان أخيرًا. كانت شخصيّته قياديّة طاغية، وكانت له صولات وجولات مع الجنوبيّين للتوصّل إلى سلام في المنطقة.

وكذلك الحال مع مستشار الرّئيس السوداني مجذوب الخليفة، إذ سارعت الأمم المتّحدة إلى نعيه، ووصفته راضية عاشوري المتحدّثة باسم المبعوث الخاص للأمين العامّ للأمم المتّحدة إلى السودان حينها بأنّه "مفاوض دؤوب وسياسيّ من الدّرجة الأولى لمساهمته في الحلّ السّلمي للصّراع في دارفور"[١٩].

> **تميّز الخليفة – مثل الزبير– بشخصيّة قويّة ونافذة و"كان يشكّل دولةً داخل دولة، فله جيشه من الأنصار وله خزانته وأمواله وله سطوته في التّعيينات والإعفاءات [...] ومن الطّرائف التي تُحكى: أنّ بعض الوزراء الذين تمّ تعيينهم في وزارات ولائيّة نائية وكانوا غير راضين عن هذه التّعيينات النّائية.. ذهبوا للفريق الزبير– عليه رحمة الله – وقالوا له : "انتوا حاقرين بينا نحنا فقط...ناس مجذوب ديل ما يمشوا الولايات". فضحك الفريق الزبير بعفويّته المشهودة وقال لهم ضاحكًا: "خلوها الولايات، ناس مجذوب ديل لو لاقين طريقة في كراسينا دي كان نطوا فيها". لذلك كان الإعلام يطلق على الدكتور مجذوب الخليفة عندما كان واليًا على الخرطوم "الرئيس في شكل والٍ" أو "والي رابط ماكينة رئيس". وقد أزعجت هذه الصفة الرئاسيّة لمجذوب الخليفة بعض الدوائر القياديّة في الإنقاذ عندما شعرت بأنّ المجذوب ربّما يطمح لخلافة الرّئيس وذلك عبر حشد الأنصار والمؤيّدين وتجييشهم، لذلك تمّ تحجيمه قصدًا عبر تعيينه وزيرًا للزّراعة في الوقت الذي كانت كثير من الدّوائر تشير إلى احتمال تعيينه مستشارًا سياسيًّا للرّئيس في رئاسة الجمهوريّة، وقبل مجذوب التّكليف.. وأحسبه قد نام فوق رأي كما يقول أهلنا البسطاء؟ ولكن يبقى لنا سؤال: هل نام آخرون على رأي آخر فانفجر فقه الضّرورة وأطاح بالرّجل؟ الله يعلم وربّما آخرون"[٢٠].**

---

[١٩] إسماعيل آدم، "مصرع 'مجذوب خليفة' رجل الخرطوم القويّ في دارفور في حادث سير"، **الشرق الأوسط**، ٢٠٠٧/٦/٢٨.

[٢٠] عبد الرحيم عمر محي الدين، **الترابي والإنقاذ: صراع الهويّة والهوى**، ط٤ (دمشق: مطبعة عكرمة، ٢٠٠٩).

رابعًا: مشكلة الوقت والتّراب في السّودان

١. جغرافيا الموت

لو كان للموت السياسيّ مكانٌ في السودان، فإنّ جغرافيته ستمتدّ بكلّ تأكيد على الأطراف أكثر من المركز، وسيسجّل الجنوب والغرب أكثف "جغرافية" حاصدة للأرواح في تاريخ السّياسة السودانيّة الحديثة، لن يكون الداخل مبرَّأً من المسؤوليّة، كما لن تكون الأيادي الخارجيّة كذلك، لأنّ سياسة "شدّ الأطراف" – كما يقول كثيرون– كانت– ولا تزال– إستراتيجية مجرّبة ومفضّلة لأعداء السودان لإشغال ساسته وإثخان جسده بالجراح والموت والتمرّد، ومن ثَمّ إدمان الحديث عن الشرعيّة السياسيّة للمركز والتّهميش الذي يطال الأطراف. ولطالما كان "النّقاش المناطقيّ" في السودان مثارًا للجدل و"الدّجل" أيضًا، فعلى الرّغم من حساسيّته كموضوع سياسيّ إلا أنّ سياسيّين وكتلًا وجماعاتٍ حزبيّة تتناوله بحقّ وبغير حقّ، تصيب قليلًا حينما تؤشّر لوجود أزمة في الحكم والتّنمية، وتخطئ كثيرًا حينما يعوزها الاستدلال والاحتجاج فتلجأ إلى ليّ رقبة الأرقام والإحصاءات باتّجاه الرّغبة في الاتّهام بالتّهميش مثلما فعل واضعو "الكتاب الأسود: اختلال ميزان تقسيم السّلطة والثّروة في السّودان"، ذلك الكتاب الذي اشتغل على حركة "المكان" من دون اعتبار لمتغيّرات الزّمان والظّروف والأنظمة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة.

إنّ مشكلات الحضارة والنّهضة لا تتركّز فقط على "المكان" مثلما كتب المفكّر الجزائري مالك بن نبي، وإنّما تشمل "الإنسان، والوقت، والتراب". يقول ابن نبي في كتابه **شروط النهضة:** "لكي نقيم بناء نهضة لا يكون ذلك بأن نكدّس المنتجات، وإنّما بأن نحلّ هذه المشكلات الثّلاث من أساسها"[٢١].

---

[٢١] مالك بن نبي، **شروط النهضة** (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦)، ص٤٥.

إن كان الوقت بحسب مالك بن نبي مشكلةً تحتاج إلى حلّ، فهو في السودان ربّما يفوق المشكلة وصفًا، إلا أنّ الناظر في سجلّات التاريخ والأيّام يلاحظ بطش الموت في أشهرٍ معيّنة من السّنة. وإن كانت كثرة من السودانيّين تعتقد أنّ "شهر آذار / مارس هو شهر الكوارث"، فإنّ شهر آب / أغسطس هو شهر الموت السياسيّ في السودان، وقعت فيه على فتراتٍ متفاوتة أحداث سياسيّة كثيرة ومؤثّرة.

٢. تأريخ الموت

قبل أن يتذوّق السودان حلاوة الاستقلال أطلّ على الحياة السياسيّة آخر أشهر آب / أغسطس، وأطلّت معه طلائع التمرّد الأوّل في جنوب السودان في ١٨ آب / أغسطس عام ١٩٥٥، فوقعت مجزرة توريت التي قتل فيها المئات من السودانيّين وعمّقت شرخًا بين الشماليّين والجنوبيّين لم تستطع المساعي الحكوميّة والشعبيّة إعادته إلى سابق أوانه، حتّى أنّ البعض لا يصف الحادثة بالمجزرة في حقّ الشماليّين وإنّما هي في حسبانهم "أوّل عمليّة تطهير عرقيّ في السودان. وهي ذات الأحداث التي كتب فيها الشّاعر السوداني الرّاحل الهادي آدم قصيدته المشهورة "توريت يا وكر الدّسائس والخديعة والدّم". لقد كان التأثير الأخطر لهذا الموت الجماعيّ أنّه تحوّل إلى "لا شعور" ساهم مع عددٍ من العوامل في تقسيم السّودان وعدم استقراره. ولا ننسى في هذا السّياق الزّمنيّ والاجتماعيّ المؤلم، مقتل جون قرنق. ولا ننسى تداعياته التي حرّكت اللاشعور ودفعت به إلى العلن، فحدث ما حدث في يوم "الاثنين الأسود" والأيّام التي تلته. وكلّها أحداث موت احتواها شهر آب / أغسطس، وساهمت بقدرٍ كبير في رسم خارطة المستقبل السّياسيّ في السّودان.

لم يتوقّف الموت السّياسي عن مصادقة شهر آب / أغسطس، فها هو يطلّ في حوادث المولد في عهد الرئيس السودانيّ عبود، والتي كانت في ٢١ آب / أغسطس عام ١٩٦١، وارتفعت فيها أرواح العديد من الأنصار. وهي الأحداث التي شكّلت نهاية حياة الإمام الصديق بعد الذبحة الصدريّة التي أصابته أسابيع بعد تلك المواجهات. وكانت وفاته في تشرين الأول / أكتوبر من عام ١٩٦١ خسارة لمعسكر معارضة حكم عبود العسكريّ.

وفي آب / أغسطس من عام ١٩٦٩، توفّي الرئيس الأوّل إسماعيل الأزهري، وكاد إعلان وفاته في مستشفى الخرطوم أن يؤدّي إلى احتجاجات ضدّ حكومة الرئيس جعفر نميري التي أحاطت بيت الزعيم الأزهري في أم درمان بالمدرّعات ونقلته إلى سجن كوبر. وفي آب / أغسطس أيضًا من عام ١٩٧٣، وضدّ نظام نميري أيضًا، وقعت انتفاضة شعبان.

أمّا الموت الذي اختلطت فيه السّياسة بالاقتصاد، فكان في آب / أغسطس من عام ١٩٨٤ بعدما ضرب الجفاف والتصحّر مناطقَ واسعة من غرب السودان. حصد الجفاف أرواح الكثيرين، وشهدت العاصمة السودانيّة أكبر موجات نزوحٍ إليها، وهو ما كان مفاجئًا لإمكانات الخرطوم المحدودة وغير القادرة على استيعاب تلك الأعداد التي كانت تقدَّر بالآلاف. وقد أثّر ذلك الجفاف والنّزوح الذي أعقبه في ميزان التّنمية في المركز والهامش على حدٍّ سواء. ولم تنقضِ سنوات الجفاف حتّى كانت موجة الفيضانات والسّيول الشّهيرة في آب / أغسطس من عام ١٩٨٨، والتي زادت الحكومة المرهقة حينها رهقًا على رهق.

خامسًا: متى يفكّر السّياسي في الموت؟

١. ميلاد الأنظمة السياسيّة وموتها

حينما تدقّ ساعة الرّحيل، يعرف الجميع أنّ الموت لا يطلب من أحد تحديد "وقت الزّيارة". نعتقد أنّ الوقت، أو بالأدقّ وقتنا، لم يعد مهمًّا للموتى، إنّما هم الأحياء الذين يحرصون على تأريخ الموت. وتبدو لحظة الموت مثل الميلاد في العناية والكتابة، نحرص على إثبات تاريخ الوفاة على شواهد القبور مثلما تحرص الحكومة على إثبات تاريخ ميلادنا في سجلّاتها. السّؤال الذي ينتظرنا لنطرحه: هل بالإمكان أن نعامل السّياسة في السودان مثلما نعامل الإنسان، نحتفي بميلاده وموته؟ تشير الإجابة الأوّلية إلى أنّ السودانيّين شديدو الاحتفال بميلاد الأنظمة السياسيّة لا بوفاتها، ويعلون دائمًا من تأريخ بداية أيّ نظام سياسيّ جديد، ويدفنون تاريخ نهايته وذكراها مع جثّته؛ لذلك، لا يكاد كثيرون –خاصّةً الأجيال الجديدة– يتذكّرون تواريخ نهاية نظمنا السياسيّة التي حكمت السودان طوال الستّين سنة الأخيرة، فلا يستحضر البعض نهاية نظام أوّل

حكم ديمقراطيّ إلّا على أنّه بداية لأوّل عهدٍ عسكريّ في السودان قام على أكتاف الفريق عبود، ولا نهاية عهد عبود إلا على أنّه بداية لعودة الحياة الحزبيّة لتسيير دفّة السياسة مجدّدًا. وهكذا، تبدو تواريخ وأنظمة ٢٥ أيار / مايو، و٣٠ حزيران / يونيو، قريبة من الذّاكرة دائمًا، ولن ننسى أيضًا تاريخ ٩ تمّوز / يوليو ٢٠١١ بوصفه بدايةً للسّودان الجديد المنفصل عن الجنوب بموجب الاستفتاء الذي مارسه مواطنو جنوب السّودان.

ويبدو أنّ حرص الأنظمة السياسيّة على حياتها يدفعها للاحتفال دومًا بأعياد ميلادها، وهذا ما يساعد على ترسيخ تواريخ بداياتها في أذهان الناس، إلا أنّ ذاكرة السودانيّين كذلك ظلّت عصيّةً على نسيان نهايات الأنظمة العسكريّة بالذّات لارتباطها بثورات وانتفاضاتٍ شعبيّة سبقت ثورات الربيع العربيّ المفاجئة بسنواتٍ طويلة. ويتذكّر السودانيّون سنويًّا هذه النّهايات السياسيّة المشرِّفة لهم، وتبدو قريبة من مَثَلهم السّائر "موت الجماعة عرس"، فموت الأنظمة العسكريّة الاستبداديّة عرس أيضًا. أحيانًا يتذكّرون هذه الثّورات بعنفوان، وأحيانًا بخجل، لكن المؤكّد أنّ الاحتفاء بها يجري بصورة شعبيّة وطوعيّة لا يدَ للحكومات فيها.

٢. أسئلة عسيرة عربيًّا

حينما طارد الموت الرّئيس الليبي الرّاحل العقيد معمّر القذّافي، وانفرجت أسارير الشّعب الليبيّ بموت نظام سياسيّ كامل كان يبنيه العقيد القذّافي ويسيطر عليه بقبضةٍ من حديد، لم يصدّق البعض أنّ كلّ ذلك العهد البائد قد ولّى إلى غير رجعة، فاتّجهوا إلى السّخرية والنّكتة. وقال قائل في النّكتة السياسيّة التي تناقلتها مواقع الإنترنت: "المادّة ٥٣٤ من الدستور الليبيّ ليست موجودة في أيّ دستور في العالم تقول: في حالة وفاة رئيس الدولة تعقد لجنة طارئة لتحضير روح الرئيس لقيادة الدولة كمرحلة انتقاليّة وفي حالة عدم التمكّن من عمليّة التحضير أو

اعتذار روح الرئيس يلغى منصب رئيس الدولة ويلغى الدستور ويتمّ توزيع الشّعب على الدول المجاورة توزيعًا عادلًا"[٢٢].

ربّما تمنّى بعض الرّؤساء لو استطاعوا بالفعل استنساخ مثل هذه "المادّة الخياليّة" في دساتير بلدانهم حتّى ينعموا بأطول فترة ممكنة من الحكم حتى بعد موتهم، لكنّها في النّهاية مزحة، وأمنية تقارب المستحيل، وتقف أمامها لعبة الموت السياسيّة بالمرصاد.

إنّ صدق الخطاب والممارسة السياسيّة –كما يعتقد المفكّر عبد الله ساعف– ينطوي على تقبّل فكرة الموت السّياسي والموت البيولوجيّ أيضًا. ويقول ساعف في هذا الشأن:

> **"لا تهمّ نتيجة الفعل السياسي دون تجربة الموت، فلن يكون الفاعل السياسي على الأكثر إلا سياسيًّا. يتحدّد صدق الخطاب وكذا الموقف السّياسي، على أساس جاهزيّة السياسيّين لكي يتحمّلوا المجازفة بحياتهم. السّياسة، وهي تتبنّى إمكانيّة سلبها الذاتي داخل مشروع التحوّل المجتمعي، فإنّها تشتغل في عالم للتّجاوز ينحلّ معه الفرد إلى فعل بطوليّ".. إنّ هذا الفعل السياسيّ البطولي، المُقدم على الموت بصدرٍ رحب، والذي يشير إليه ساعف لم يتحقّق في العقود الأخيرة من العالم العربيّ، بل تحوّل هذا الفعل البطوليّ بكامله إلى أفراد الشّعب ممثّلا في ثورات الرّبيع العربي التي اندلعت أخيرًا بدايةً بتونس ومصر وليبيا، إذ ضحّى الكثير من الأفراد بأرواحهم من أجل إنهاء حيوات سياسيّة خانقة وغير متقبّلة لموتها السياسيّ ولا البيولوجيّ، ولهذا "ينبني العالم المأتمي لمستخدم السّياسة حول انشغالات انتهازيّة صغيرة، من أجل رهانات ذات أهمّية محدودة مثل إعادة تنظيم أجهزة سياسيّة تجاوزها التاريخ، الصّراع على التّركة ليس فقط سياسيًّا، لكن أيضًا فيما يتعلّق بالممتلكات. وتهتمّ، المنظومات الفلسفيّة في تعدّديّتها بسمة مشتركة، هي إبقاء الموت داخل وضعيّة محض تجريديّة، حقيقة مرعبة، حتميّة بعيدة لا مفرّ منها. هذا الفعل البيولوجي الذي نعطيه ماهيّة أنطولوجيّة تفسّره مفاهيم سياسيّة: تماثل الموت في المجتمعات القمعيّة مع الهيمنة، غياب الحرّية ثمّ الإخفاق"[٢٣].**

في الموقع الإلكتروني "إجابات جوجل"، سُئل الزوّار بتاريخ ٢٠١٠/١٠/٢٨: "هل ستكون بلدك في خطر في حال موت الزّعماء الحاليّين؟"، فقالت إحداهنّ، وتدعى هيام: "لا

---

[22] http://ejabat.google.com/ejabat/thread?tid=65cc460e57551e43

[٢٣] عبد الله ساعف، مرجع سبق ذكره.

أبدًا... لأنو في ديمقراطيه لا عسكر ولا انقلابات بانتخابات وأحزاب والناس أحرار ولسنا نعاني من قحط في الرجال". وآخر يسمى nadali، قال:" مش هتتغير ولو اتغيرت هتتغير للأسوأ لأن اللي هيجي أنيل من اللي قبليه". أمّا المستخدم TO.BE، فيقول: "لا عادي"، ومثله حسن الشيخ: "لا تأثير أبدًا"، بينما قال مريول معلول: "لا تزيد صلاحًا وازدهارا". وقالت مستخدمة تسمي نفسها "صريحة جدّا": "طبعًا! الدول العربيّة لدينا قائمة على عروش 'الرجل الدولي' فهي دولة الرجل.. ونحن ما ملكت يمينه أو شماله... اللهمّ احفظه لا لأنّي أحبّه بل لأنّي أحبّ بلدي وأخشى على أمنها!"، أمّا "the tudors" و"ديووو العراقيّة"، فينفيان ويقولان: "لا"، ومحمود مصراوى يقول: "في حالة موت الزّعماء الحاليّين ستكون بلدي في خير والله أعلم". وتؤكد "ربا غمزه عين" قائلة: "نعم، مهما كان الزعيم سيّء أم جيّد يضمن بعضا من جوانب الحياة للناس مثل الاقتصاد والأمن". وماجد الفرطوسي يقول: "لا خطر أبدًا، ولكن الخطر من الفكر التكفيري الإرهابي الذي رأسه في القرن الثامن وأقدامه في القرن الواحد والعشرين، ويفكّر في قتل كلّ من خالفه في فكره ومعتقداته، هذا أخطر وأعنف، وكذلك الذين يفكّرون كيف يملؤون جيوبهم من أموال الشّعب"[٢٤].

مثل هذه الأسئلة التي تمسّ الجناب الرّئاسيّ والقياديّ في بلداننا العربيّة والأفريقيّة، لا تُطْرَح في العادة بديمقراطيّة ذات شفافيّة، مع أنّ موت السياسيّ واقع لا محالة مثله مثل المواطن البسيط، غير أنّ وفاته مكلفة للحزب، وربّما مكلفة للدّولة والنّظام إن كان الفساد والاستبداد والأحادية هي السلوكيّات السياسيّة السّائدة. وإن طرحت مثل هذه الأسئلة، فإنّها غالبًا تقتصر على المجالس الخاصّة والمغلقة، ويفكّر في إجاباتها عادةً المحكومون، ولا يفكّر فيها الحاكمون على الرّغم من أنّهم الأَوْلى لضمان الاستقرار والتّسلسل القياديّ.

لقد سبق فعلًا أن أشار الرّئيس اليوغسلافي جوزيف بروز تيتو إلى أنّ "الموت السياسيّ يعدّ أكثر أنواع الموت فظاعةً"، ويبدو هذا الشّعور – عند الحكّام العرب وغير العرب– مفهومًا

---

[24] http://ejabat.google.com/ejabat/thread?tid=538662a790f33e27.

تمامًا لأنّ "المخاطر الملموسة من فقدان السّلطة معروفة تمامًا، فرهبة الهزيمة ليست مرتبطة بالتخلّي القسري عن السّياسات التي تمّ النّضال من أجلها بزخم وهدف كبيرين وحسب، بل ارتبط الخوف من الموت السياسي بفقدان عمل التحدّي المستمرّ، وبالنّوح على تطويل الأيام، إذ قُسِّمت الدقائق بصورة دقيقة، وبالمذكّرات اليوميّة الفارغة والهواتف الصّامتة، وبالعجز عن تعويض الوقت الضّائع بصحبة العائلات والأحبّة، وبالصّعوبة العاطفيّة والمخاوف من اكتئاب مطبق (عانى منه ليندن جونسون، على سبيل المثال) سببه عالم رجوليّ أصبحت فيه البلادة متطلّبًا للتوظيف، وعُدّت الإقرارات بالضّعف فيه عبئًا"[٢٥]. والأغرب من كلّ ذلك ما قام به الرّئيس تيتو تعضيدًا لمقولته المهوّلة لفظاعة الموت السّياسيّ، فهو "لم يصبغ شعره وحسب، بل تباهى بأسنانه الصناعيّة ناصعة البياض، واستخدم مصباحًا شمسيًّا لزيادة اسمراره، وكأنّه أراد بناء ذاتٍ متعاظمة لا تعترف بالموت؛ فقَرَن تيتو بذلك الرّحيل عن المنصب بالموت الجسديّ، فمن هنا ضَمنَ ولاية للمنصب أبديّة، وأمَرَ بتغيير دستوريّ للقيادة الجماعيّة، فبعد استمراره (هكذا ظنّ) لا يستطيع أحد أن يصادر شهرته ويقاومها، أو أن يشوّه سمعته"[٢٦].

إلا أنّ الأمر الغائب عن أنظمتنا السياسيّة العربيّة المتكلّسة على نفسها أنّ هناك حياة بعد الموت السياسيّ بإمكان "السياسيّ الميّت ديمقراطيًّا" أن يحياها في ما تبقّى من عمره. ويبيّن جون كين أن:

> **"ثمّة إقرارًا عامًّا متزايدًا بوجود حياة بعد الموت السّياسي، وبإمكانيّة عودة الزّعماء السياسيّين السابقين من خلال طرائق تشكّك في قدرتهم على إعادة الدّخول إلى نظام الحكم والتدخّل في هيكليّاته وسياساته، إلا أنّ الأمر اللافت يكمن في الأعداد المتزايدة من أصحاب المناصب السّابقة الذين يستغلّون التوجّهات الإقليميّة والعالميّة من خلال الانخراط في أنظمة حكم، ومصالحَ تجاريّة، ولجان دراسة ومشورة، وجمعيّات خيريّة، وقضايا إعلاميّة وعامّة، عابرة للحدود، ومع هذا، يمكن الشّعور في عصرنا الرّاهن بهذا التصوّر الكامل لإمكانيّة اعتبار المجتمع المدني مرتعًا خصبًا لأصحاب المناصب السّابقين؛ فيُعدّ إغراق المجتمعات المعاصرة إعلاميًّا من العوامل المؤثّرة التي تُمكّن الزّعماء السّابقين الكبار من التمتّع بالحياة بعد**

---

[٢٥] جون كين، "الحياة بعد الموت السياسي: مصير الزعماء بعد رحيلهم عن مناصبهم العليا"، **مجلة نزوى**، العدد ٦٧ (٢٠١١/٨/٢٤).

[٢٦] المرجع نفسه.

الموت السياسيّ من خلال تحوّلهم إلى شخصيّات مشهورة، وهذا يعلّل اكتشاف أعداد متزايدة من الزّعماء السياسيّين الكبار المبهورين بجاذبيّة النجوميّة أنّ ثمّة حياة مديدة يمكن عيشها بعد تولّي مناصبَ عليا، فيدركون أنّ عدم تجانس مجتمعاتهم المدنيّة المشبعة إعلاميًّا يؤمّن لهم خيارات واحتمالات قيادتهم للآخرين بطرائقَ جديدة خارج إطار الحكم، ويصادقون الشّهرة من خلال البحث عن أدوار نجوميّة في سلسلة محاضرات عالميّة على سبيل المثال، وإنشاء مؤسّسات خيريّة، وعرض خدماتهم على المصالح التجاريّة، وتوقيع عقود كتب مربحة"[٢٧].

٣. مؤشّرات الموت أو الاحتضار

من الصّعب القول إنّ الموت بات ظاهرة سياسيّة في السّودان، لأنّ الأعمار والأقدار بيد الله، إلا أنّ قراءة الحاضر والمصائر تفيد بأنّ الظاهرة تقترب من المشهد السّياسي. وتؤشّر أعمار قيادات الأحزاب السودانيّة الكبيرة على تفاقم أزمتين أساسيّتين: أزمة ديمقراطيّة في الدولة والأحزاب وأزمة شيخوخة في قياداتها وزعاماتها.

بالأمس القريب (في ٢٢ آذار / مارس ٢٠١٢) اختطف الموت زعيم الحزب الشّيوعي السودانيّ الأستاذ محمد إبراهيم نقد عن عمر يناهز ٨٢ عامًا، ظلّ يقود الحزب منذ عام ١٩٧١ وحتّى وفاته في ٢٢ آذار / مارس عام ٢٠١٢. موت نقد سيمثّل – في المستقبل– تغييرًا كبيرًا في شكل الحزب الشّيوعي واتّجاهاته، وسيفسح المجال للرّئة الشبابيّة فيه أن تتنفّس بقوّة. وتعاني أحزاب أخرى من الدّاء نفسه، فحزب المؤتمر الوطني ظلّ يترأّسه الرئيس المشير عمر البشير منذ عام ٢٠٠٠، كما ظلّ رئيسًا للسّودان منذ ٣٠ حزيران / يونيو عام ١٩٨٩ وهو المولود في الأوّل من كانون الثاني / يناير عام ١٩٤٤. وعلى الرّغم من إعلان البشير عدم ترشّحه للرّئاسة مرّةً أخرى إلا أنّه يؤكّد على وجود المشكلة ويشير للإحساس بها. في الجانب الآخر، ما زال زعيم المؤتمر الشّعبي حسن الترابي رئيسًا للحزب منذ٣١ حزيران / يونيو عام ٢٠٠١، وظلّ زعيمًا للإسلاميّين منذ ستينيّات القرن الماضي حتّى الآن، وهو المولود في الأوّل من

[٢٧] المرجع السابق.

شباط / فبراير عام ١٩٣٢. أما الإمام الصادق المهدي، فهو الآخر من الجيل نفسه الذي تخطّى الخامسة والسّبعين من العمر ومازال ممسكًا بمقاليد حزب الأمّة، إذ أصبح رئيسا لحزب الأمة منذ منتصف ستينيات القرن الماضي، كما تزعّم الحزب بعد أن سُمِّي "حزب الأمة القوميّ"، منذ آذار / مارس عام ١٩٨٦ وحتّى الآن، وهو المولود في ٢٥ كانون الأوّل / ديسمبر عام ١٩٣٥. وتشير السّيرة الذاتيّة لزعيم الطّائفة الختميّة والحزب الاتّحادي الديمقراطي السيّد محمد عثمان الميرغني إلى أنّه أصبح زعيمًا للحزب الاتّحادي بعد وفاة زعيمه السّابق الشريف حسين الهندي في مستهلّ عام ١٩٨٢ ولا يزال حتّى الآن، كما أنّه أصبح زعيمًا للطّائفة الختميّة منذ وفاة والده في عام ١٩٦٨ حتّى الآن، وهو المولود في عام ١٩٣٦.

٤. تحييد الموت عن المناصب الحزبيّة

لا تحاول هذه القراءة أن تغمط أقدار الرّجال ولا إسهاماتهم الحزبيّة والوطنيّة، ولكنّها تشير فقط للأزمات القياديّة التي تجري في دماء الأحزاب السودانيّة وتؤثّر تأثيرًا مباشرًا في أوضاع البلد ومستقبله. وتحاول هذه القراءة أن تقتفي الأثر السّياسيّ للموت الذي بدأ ينشب أظفاره في الرّموز السودانيّة القوميّة التاريخيّة، دينيّة كانت، أو سياسيّة أو اقتصاديّة أو ثقافيّة.

إنّ القيادات التي عمّرت في حياتها الشخصيّة والحزبيّة بإمكانها أن تستبق لعبة الموت السياسيّة وتأثيراتها في أحزابهم وبلدانهم، بتحييد الموت عن مناصبهم الحزبيّة، وإفساح المجال واسعًا لهواء التّجديد والتّغيير لأن يحلّق بأجنحة أحزابهم ومجموعاتهم السياسيّة من جديد، بعيدًا عن "الموت" اللّاعب السّياسي الذي لا يحابي.

الخاتمة: موت مقابل حياة سياسيّة

لقد دلّ الشّعب السودانيّ، ولا يزال يدلّ على مقولة الفيلسوف أرسطو "الإنسان في الأصل كائن سياسيّ". لقد ضرب السودانيّون ولا يزالون يضربون المثل في الانفعال بالسّياسة، ظلّ يتجسّد الانشغال بها في الوجدان الجمعيّ بحنين دائم لنموذجٍ سياسيّ رشيد ظلّ مُفْتَقَدًا منذ بزوغ السّودان دولةً مستقلّة عن الاحتلال الإنكليزي. يرتفع الانفعال إلى مستوى التعبير الشّعبي والرّسمي الذي يتحدّث دومًا عن السّياسة ومشاكلها، ولا يهبط عند هذا الحدّ، بل يزداد تصاعدًا بالمراقبة الشعبيّة للممارسة السياسيّة التي تعمل عثراتها على شحن "مخزن الانفعال" مجدّدًا لتستمرّ الدّورة مرّةً أخرى؛ إلا أنّ المفارقة المحزنة، أنّ كلّ هذه الحساسيّة السياسيّة المرتفعة عند السودانيّين تضلّ طريقها إلى واقعهم، ولا تتطوّر لاستقرار وتنمية ونهضة؛ ولهذا يبدو واضحًا أثر الموت حين يرتبط بالسّياسة، مثل كفّة ميزان تمتلئ بالحيويّة السياسيّة مرّةً وبالموت مرّةً أخرى.

المراجع

- أبو حسن، ياسر. "الاغتيالات السياسيّة في السودان وأثرها على الدبلوماسيّة السودانيّة"، مركز الراصد للبحوث والعلوم، د.ت.
<http://www.arrasid.com/index.php/main/index/33/64/contents>

- البغدادي، عصام. "الاغتيالات السياسيّة في الشّرق الأوسط"، **الحوار المتمدّن**، العدد: ٧٨٣ (٢٠٠٤/٣/٢٤).

- بن نبي، مالك. **شروط النّهضة** (دمشق: دار الفكر،١٩٨٦).

- شورون، جاك. **الموت في الفكر الغربي**، سلسلة عالم المعرفة، عدد ٧٦، نيسان / أبريل ١٩٨٤ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٤).

- عبد الخالق، أحمد محمد. **قلق الموت**، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١١١، آذار / مارس ١٩٨٧ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٧).

- فرويد، سيغموند. **أفكار لأزمنة الحرب والموت** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨١).

- كين، جون. "الحياة بعد الموت السياسي: مصير الزعماء بعد رحيلهم عن مناصبهم العليا"، **مجلة نزوى**، العدد ٦٧ (٢٠١١/٨/٢٤).

- محي الدّين، عبد الرّحيم عمر. **التّرابي والإنقاذ: صراع الهويّة والهوى**، ط٤ (دمشق: مطبعة عكرمة، ٢٠٠٩).